

علاقة الدولة العربية الإسلامية مع الإمارات الإسبانية في الشمال

العلاقات بين الأندلس والإمارات الإسبانية:

١ - العلاقات الحربية:

سادت العلاقات الحربية بصورة عامة بين الأندلس والإمارات الإسبانية في الشمال. وكانت الحملات العسكرية العربية تزداد كثافة باتجاه الشمال، كلما كانت الأحوال الداخلية مستقرة، والأوضاع هادئة في الأندلس، فيتفرغ الأمراء لمكافة الخطر الخارجي المتمثل بالإمارات الإسبانية. وكذلك الحال بالنسبة لهذه الإمارات فكانت تشن الهجوم على أراضي الأندلس في الفترات التي تشعر فيها بقوتها، وضعف المسلمين. من ذلك مثلا ما حدث في عهد فرويلا الأول الذي استغل انشغال الأمير عبد الرحمن الأول بالقضاء على تمرد العلاء بن مغيث، فأغار على أراضي الدولة العربية الإسلامية، وعبر نهر دويرة، وغزا لك وشلمنقة، وشقوبية، وأبله وسمورة وغيرها. وكان لا بد لعبد الرحمن الأول أن يتخذ إجراءات كفيلة برد الخطر الإسباني، فجرد، برغم انشغاله بالفتن الداخلية، حملة تأديبية يقودها مولاه بدر إلى الشمال، وبشكل خاص إلى منطقتي ألبه والقلاع، وهي الأراضي الواقعة بين بلاد الباسك وجبال كانتبرية على ضفاف نهر الإبرة شرقي مملكة جليقية. وقد حققت هذه الحملة نجاحا ملحوظا، وأرغمت سكان هذه المناطق على دفع الجزية للدولة العربية الإسلامية.

والظاهر أن حملة بدر هذه كانت ذات أثر كبير على طبيعة العلاقات التي سادت فيما بعد بين عبد الرحمن الأول وإمارة جليقية. فلقد أوقفت النشاط التوسعي لهذه الإمارة على حساب الأندلس، يضاف إلى ذلك فقد خيم السلام على المنطقة في عهد الملوك الذين عاصروا عبد الرحمن، والذين كانوا بمثابة أتباع للحكم الأموي ويدفعون الجزية إلى قرطبة. وقد بلغ نفوذ العرب حدا كبيرا في التدخل بشؤون هذه الإمارة، حتى أنهم كانوا يتدخلون في الخلافات التي كانت تنشب بين الأمراء الإسبان للوصول إلى العرش، فيساعدون الموالين منهم على التغلب على منافئهم. ويدين أحد هؤلاء الأمراء، وهو مورقاط (مورجاتو)، للعرب بوصولهم إلى الحكم. ومما يذكر أن هذا الحاكم الأخير كان من أصل عربي من جهة الأم، وقد بالغ في التقرب إلى المسلمين والتودد إليهم.

ولكن العلاقات الحربية سرعان ما عادت إلى وضعها الأول بعد وفاة مورجاتو سنة ١٧٣ هـ، وتولي برمود أو برمودة. الذي عزل بعد نحو سنتين، ثم حكم بدلا منه ألفونسو الثاني الذي يسميه العرب بـ إدفونش (١٧٥ - ٢٢٧ هـ). ففي هذه الحقبة التي تولى فيها الأندلس هشام بن عبد الرحمن، وابنه الحكم، وحفيده عبد الرحمن بن الحكم، اشتدت الاشتباكات والغزوات بين

الجانبين. فقد سيرت الدولة حملات في كل صيف تقريبا في عهد هشام، وحقت انتصارات كبيرة على إمارة جليقية. وكان على رأس هذه الحملات المتجهة إلى الشمال قواد معروفون ساهموا في إقامة الدولة الأموية في الأندلس، منهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، ويوسف بن بخت، الذي أنزل بالملك برمود هزيمة ساحقة، واضطره إلى الفرار بنفسه إلى معاقله بعد أن تكبد جيشه عددا كبيرا من القتلى . ومن القادة الآخرين: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، الذي قاد صائفة سنة ١٧٩هـ حتى انتهى إلى مدينة استرقة داخل جليقية، بل إنه وصل مدينة أوفيدو، العاصمة القديمة للإمارة الإسبانية وهزم ألفونسو الثاني الذي كان يقع أسيرا في يديه، لولا فراره إلى إحدى القلاع البعيدة في الشمال .

وقد استغل ألفونسو الثاني انشغال الحكم الأول ببعض الفتن الداخلية، وبخاصة تمرد ماردة، فهاجم أراضي الدولة العربية وتوغل فيها، حيث عبر نهر دويرة، وسار حتى قلمرية وأشبونة في البرتغال الحالية، وعاث في تلك المنطقة، وخربها. فرد الحكم بأن سار بنفسه سنة ١٩٤هـ وغزا بلاد الأعداء واستعاد المدن المغتصبة. ثم باشر في إرسال الحملات إلى الشمال، ومنها حملة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث سنة ٢٠٠هـ إلى جليقية التي أنزلت ضربة قوية بسكان المنطقة في وادي آرون

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم، الذي تميز بهدوء نسبي للأحوال الداخلية في الأندلس، استمرت الحملات الصائفة إلى الشمال، وقلما كانت تمر سنة دون جهاد للأعداء، بل إن عبد الرحمن الثاني شارك بنفسه في بعض هذه الحملات، وبخاصة سنة ٢٢٥هـ حيث غزا جليقية وفتح الكثير من حصونها. كما قام بنفسه أيضا بقيادة حملة تأديبية لحاكم تطيلة، موسى بن فرتون، الذي تحالف مع الباسك، فأخضع أتباعه في تطيلة وتقدم إلى بنبلونة عاصمة الباسك، التي التجأ إليها موسى، فأخضعها وفرض على أهلها وعلى موسى الصلح .

وهكذا استمرت الحملات إلى الشمال، واستمر النزاع بين القوتين المختلفتين في شبه الجزيرة، لكن الموقف الحربي تطور في أواخر عهد الإمارة الأموية، فبالإضافة إلى استمرار الحملات، قام كل من الجانبين بإعمار وتحصين خطوط دفاعه تجاه الجانب الآخر، فبدأت إمارة جليقية بإعمار استرقة، وليون، وإماية، وبرغش، وبقية المناطق جنوبا إلى نهر دويرة. أما العرب، فحصنوا روافد نهر تاجة الشمالية، وروافد نهر الابرة، كما بنى الأمير محمد بن عبد الرحمن مدينة مجريط ، وطمنكة ، وأسكن بني تجيب مدينة قلعة أيوب وحصنها لهم، وبنى لهم حصن دروكة لمواجهة الخطر الإسباني في الشمال .

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن العلاقات الحربية في عصر الإمارة تميزت بطابع روحي خاص. فأهل الأندلس يعدون حملاتهم على الممالك الإسبانية جهادا في سبيل الله، بينما كان

إسبان الشمال يعززون من مقاومتهم للعرب بتأجيج الروح الصليبية. وكان لقبر القديس يعقوب، (سانتياجو) في مدينة شنت ياقب تأثير كبير في إثارة الروح المعنوية عند الإسبان. ولم تكن الحملات التي يشنها هؤلاء في حقيقتها سوى حرب صليبية " يقود فيها سانتياجو جحافل الإسبان ضد أعدائهم على مر القرون .

٢ - العلاقات الدبلوماسية والمصاهرات:

تخللت حقبة الحروب الطويلة بين الأندلس والإمارات الإسبانية في الشمال سنوات عديدة تميزت بعقد هدنات أعطت للجانبين فرصا كثيرة للاتصال والتعرف والاقتراب. وكانت هناك اتصالات دبلوماسية بين الطرفين، وإن كانت هذه الاتصالات لا تبدو واضحة جدا في هذا العهد، لأن بعض الإمارات الإسبانية كانت ما تزال في طور النمو والتكوين. لكن العهد التالي، أي عهد الخلافة، تميز بنضج هذه العلاقات، وتبادل الوفود والسفارات بين الجانبين على نطاق واسع. ومع هذا، فهناك ما يشير إلى وجود علاقات من هذا القبيل في عهد الإمارة، وإن كانت قليلة جدا. ففي عهد عبد الرحمن الأول تم عقد أمان وسلام بين هذا العاهل الأندلسي وبين جيرانه حكام قشتالة، وهذا هو نص كتاب الأمان: " بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة .

وفي الحقيقة لا توجد لدينا تفصيلات عن هذه المعاهدة ولا الظروف التي عقدت فيها. ولكن يبدو من تاريخها أنها عقدت في أيام فرويلا الأول. ويرتاب بعض المؤرخين المحدثين في صحة الأرقام التي وردت فيها لضخامتها بالنسبة لموارد الإمارة الإسبانية في ذلك الوقت المبكر. كما يشكون أيضا في الوثيقة ذاتها، وإن كان لا يوجد لديهم حجة حاسمة لترجيح إنكارها . بل على العكس، فقد كان عبد الرحمن الأول قويا في تلك الحقبة، مما جعل فرويلا الأول عاجزا عن مواجهته والتصدي له، لذلك يحتمل أنه لجأ إلى الموافقة على عقد مثل هذه المعاهدة. ولقد رأينا فيما سلف أن العلاقة بين إمارة جليقية، والدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الأول، تميزت بالهدوء والسلام بعد حملة بدر إلى الشمال، وأن أمراء الإسبان الذين تولوا الحكم خلال الفترة الباقية من حكمه، تميزوا بسياستهم التقريبية والموالية لحكومة قرطبة.

ولا توجد علاقات ودية ذات أهمية في عهد بقية الأمراء الأمويين، باستثناء عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، الذي وصلت الدولة العربية في الأندلس في عهده إلى مكانة سامية، وأصبحت

مركزا للنشاط الدبلوماسي والسفارات في المغرب الإسلامي. وقد وصلت هذه العلاقات الدبلوماسية أوجها مع الإمبراطورية البيزنطية . أما بالنسبة للعلاقات مع الإسبان، فلم تكن بتلك القوة، وكانت بعض معاهدات الصلح تفرض بعد الانتصارات التي يحققها أهل الأندلس على جليقية وبقية المناطق الأخرى، من ذلك مثلا الصلح الذي فرضه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث على الجلائقة، بعد أن غزاهم سنة ٢٠٨ هـ بغزوته المعروفة بغزاة ألبة والقلاع . والتي كانت ردا على هجومهم على مدينة سالم في الثغر الأعلى. وكان من بنود هذا الصلح إطلاق سراح جميع الأسرى من الأندلس، ودفع جزية كبيرة، وتسليم بعض زعماء المنطقة إلى الدولة ليكونوا رهائن، ضمنا لعدم اعتدائهم في المستقبل . وقد حدثت بعض الاتفاقات بين إمارة نافار وعبد الرحمن الأوسط. وكانت هذه الإمارة قد بدأت بالتححرر من سيطرة الإفرنج، وتدخلهم في شؤونها، مما جعلها تتوجه إلى الأندلس لطلب العون والإسناد. ولهذا السبب فقد جاءت سفارة نافارية إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط في قرطبة، وعقدت معاهدة بين الطرفين، تعهدت الدولة بموجبها بحماية نافار من أي اعتداء خارجي، مقابل مساعدة النافاريين لأهل الأندلس فيما إذا أرادوا عبور جبال ألبرت إلى فرنسا . ولكن لم تكن هذه المعاهدات تحترم كثيرا من قبل أمراء الإسبان، بل كانت تنقض في معظم الأحيان، خاصة إذا ما شعروا بقوتهم وضعف الدولة العربية الإسلامية في الأندلس.

وبالنسبة للمصاهرات بين العرب في الأندلس والمسيحيين، فقد كانت شائعة سواء في داخل الأندلس ذاتها أم مع الإمارات الإسبانية في الشمال. وكان الحكام يشجعون هذه المصاهرات، بل إن بعضهم قد تزوج من نساء إسبانيات، مثل عبد العزيز بن موسى ابن نصير، الذي تزوج من أرملة لذريق آخر ملوك القوط. ومن حكام المسيحيين الذين شجعوا هذا الاتجاه مورجائو المتوفى سنة ١٧٣ هـ ، الذي استقل في جليقية، وبالغ في التودد إلى المسلمين، وشجع بحماس زواج الفتيات المسيحيات من المسلمين. وكان هذا الحاكم، نفسه ابنا لألفونسو الأول من أم عربية، ولكن دعوته لم تلاق النجاح المطلوب بسبب بغض النصارى المتعصبين ورجال الدين له .

وقد قامت علاقات مصاهرة قوية بين بعض الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى، مثل بني قسي المولدين، وبين حكام نافار في الشمال . ويبدو أن مثل هذه الأسر المولدة قد أرادت تقوية نفوذها بالزواج، هذا فضلا عن عامل الجوار والقرب الذي يربط بين الطرفين. وكانت علاقات المصاهرة هذه من القوة بحيث كان بنو قسي يقفون أحيانا مع أصهارهم النافاريين بوجه حكومة قرطبة، أو الحكام الإسبان الآخرين .

ومن المصاهرات الطريفة التي حدثت في هذا العهد، زواج الأمير عبد الله بن محمد من إحدى الأميرات النافاريات، وهي ونقة ابنة فرتون بن غرسية المعروف بالأنقر، الذي

أسره الأمير محمد بن عبد الرحمن، وسجنه في قرطبة لمدة عشرين سنة . وكانت ونقة هذه قد تزوجت قبل ذلك من أمير نافاري، هو أزنار بن شانجة ، وأنجبت منه ابنة، هي طوطة ، التي ستصبح ملكة نافار، وتعاصر عبد الرحمن الثالث، وتنفد عليه في سفارة سنة ٣٤٧ هـ ساعية إلى عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة . أما ثمرة زواج الأميرة ونقة الثاني من الأمير عبد الله، فكانت ابنا؛ وهو الأمير محمد والد عبد الرحمن الثالث وبذلك تكون الملكة طوطة عمه الخليفة عبد الرحمن الناصر، لأنها أخت محمد، والد الناصر، من أمه ونقة . وتدل هذه المصاهرة على مدى العلاقات المتشابكة التي قامت بين سكان الأندلس وجيرانهم الإسبان في الشمال، مما كان له أثر بارز في احتكاك الشعبين واختلاطهم، وانتقال مظاهر الحضارة فيما بينهم

٣ - العلاقات الحضارية:

لقد كان تداخل المسلمين والمسيحيين مستمرا في إسبانيا في عصر الإمارة والعصور الإسلامية الأخرى اللاحقة، سواء كان ذلك داخل الأندلس ذاتها أم في خارجها مع الإمارات الشمالية. ولم يقتصر هذا التداخل والاحتكاك على فترات السلم فقط، بل شمل فترات الحروب أيضا. فعندما يتصل شعبان أحدهما بالآخر، فإن الشعب ذا الحضارة الأرقى هو الذي يؤثر على الآخر. وهكذا كانت الحالة بالنسبة للعرب في إسبانيا، فلقد انتقلت حضارتهم إلى الإسبان في الأندلس وفي الإمارات الشمالية بطرق شتى؛ منها الزيارات المتبادلة التي كانت تتم بين الطرفين بقصد الاطلاع أو المتاجرة، ومنها بواسطة العبيد الذين كانوا يهربون من الشمال لضمان حرياتهم، وعندما يعودون إلى بلادهم كانوا يجلبون معهم كثيرا من العادات ومظاهر الحضارة، بل إن بعضهم كان يعود وهو يحمل أسماء عربية أيضا .

وكان لوقوع المناطق العربية الإسلامية بيد الإمارات الإسبانية أثر كبير في الاتصال والاحتكاك بين الطرفين. فعندما كانت تقع إحدى هذه المناطق بأيدي الإسبان لم يكن ذلك يعني توقف وجود المسلمين فيها، بل على العكس كان الكثير منهم يبقون في هذه المناطق محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، ويمارسون طقوسهم الدينية. ومن هؤلاء العديد من أصحاب الحرف والمتقنين، الذين لعبوا دورا هاما في نقل العلوم والفلسفة الإسلامية إلى الإسبان في الشمال، ومنها إلى أوروبا. وكان ملوك وأمراء هذه الإمارات الإسبانية يضطرون إلى الاحتفاظ بهؤلاء المسلمين بسبب أهميتهم الاقتصادية للبلاد. وهؤلاء المسلمون الذين استمروا في البقاء في أماكنهم بعد سيطرة الإسبان عليها عرفوا باسم المدجنين . وكان موقفهم شبيه بموقف أهل الذمة تحت ظل الحكم العربي الإسلامي. وكانوا، كما أسلفنا، أحرارا في اتباع عقيدتهم الإسلامية، وممارسة حرفهم وتجارتهم، وعليهم مقابل ذلك دفع ضريبة الرأس أو الجزية. لقد كان وجود هؤلاء المدجنين ظاهرة تاريخية مهمة جدا في حياة إسبانيا، أدت إلى خلق بنية اقتصادية، وحضارة مادية وعلمية مشتركة بين المسيحيين والمسلمين، بلغت أوجها في العهود التي أعقبت عهد

الإمارة، وبشكل خاص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد/السابع والثامن للهجرة . ومن الجدير بالذكر أن المستعربين، وهم نصارى الإِسبان، الذين عاشوا مع العرب في الأندلس، ساهموا أيضا في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا النصرانية، لأن هؤلاء المستعربين بحكم معرفتهم للغتين العربية والإسبانية القديمة كانوا ينتقلون بحرية من أراضي الأندلس إلى الإمارات الإسبانية. وهكذا انتقلت العلوم والفلسفة وكثير من مظاهر الحياة العامة الإسلامية إلى الشمال.

ومن التأثيرات الأخرى التي تبودلت بين الطرفين، التأثيرات اللغوية، فلقد كانت المصطلحات العربية شائعة في كل من ليون وقشتالة ونافار، وبقية المناطق الأخرى في الشمال. كما دخل في اللغة الرومانسية ، وهي اللغة الإسبانية القديمة الناتجة من اللهجة اللاتينية - الأيبيرية، التي كانت في طور التكوين في ذلك الوقت، الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية. وكان هناك الكثير من العرب الذي يفهمون هذه اللغة ويتكلمون بها، وبشكل خاص في مناطق الثغور والحدود. وتوجد في مصادرنا العربية إشارات واضحة تدل على أن الأمراء والقضاة وكبار القوم والشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة الإسبانية القديمة أو الرومانسية إلى جانب اللغة العربية، وذلك على كل مستويات المجتمع وحتى في قصور الأمراء الأندلسيين . وفي الوقت نفسه كان هناك العديد من الإِسبان الذين لهم إلمام ومعرفة باللغة العربية التنظيم المدني أو العسكري لدى إسبانيا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث.

يضاف إلى ذلك مصطلحات أخرى تشمل أسماء الأمكنة والأنهار والظواهر الجغرافية، وطرق وأساليب الري، وأسماء الفاكهة والأزهار والألوان والملابس . وتعد هذه الاستعارات اللغوية أفضل من جميع الوثائق التاريخية لأنها تبرز الإشعاع الحضاري الحقيقي الذي سلطته الأندلس على إسبانيا المسيحية. وهي أكثر من جميع الأدلة إفساحا على سيادة العرب الثقافية، سيادة لا جدال فيها عمت شمال شبه الجزيرة الأيبيرية .

ولم يقتصر أثر العرب الحضاري على الإمارات الإسبانية في الشمال على النواحي الثقافية واللغوية حسب، بل شمل مجالات أخرى، منها الفنون، وخاصة فن العمارة والبناء الذي نقله المدجنون، وظهر في إسبانيا منذ بداية القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري، وظل فيها بصورة نهائية تقريبا . ويتميز هذا الفن، وبشكل خاص في الكنائس، بوجود القباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان. ومن جملة الأبنية الأخرى غير الدينية التي تأثرت بالفن العربي، الجسور والأقنية المائية المعلقة، ونواعير المياه وغيرها. كذلك يظهر تأثير المسلمين على إسبانيا في تطور الفنون الأخرى الصغرى، مثل صناعة العاج، والمصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية والتطريز. وظلت هذه الصناعات مستمرة في المدن التي استعادها الإِسبان وإلى وقت لاحق بعد عصر الإمارة، بل حتى خروج العرب من الأندلس. وذلك لأن إشعاع

الحضارة الأندلسية الذي بلغ أقصى اندفاعه في القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري، لم يتلاشى بل امتد حتى سقوط الأندلس شاملا جميع أجزاء شبه الجزيرة. ولم يقف ملوك وأمراء الإسبان ضد هذا التيار، بل شجعوه، وتبنوا هم أنفسهم شتى المبتكرات المستقاة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية المجاورة. وإن قيام بعض ملوك الإسبان في وقت لاحق بضرب عملاتهم وهي تتضمن وجهين، عربيا وقشتاليا، وارتدائهم الملابس على الطريقة الإسلامية، ليدل على مدى العمق الذي تغلغت فيه الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الإسبان وعلى أعلى المستويات

الكتاب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس

المؤلف: د خليل إبراهيم السامرائي - د عبد الواحد ذنون طه - د ناطق صالح مطلوب